

## محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية المهالبة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بذلك ، لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعداد جيش جديد أرسله إلى أفريقية بقيادة محمد بن الأشعث ، فاستقر في القيروان واجتهد في إقرار الأمن في أفريقية وبذل بالفعل جهودا كبيرة في ذلك السبيل ، وعندما انتهت ولايته في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، عهد هذا في ولاية أفريقية إلى زعيم من زعماء العرب البلديين في مصر ، وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ، وكان فارساً شهماً ، في المسير إلى المغرب ، فسار إلى أفريقية مع أهله ومن بينهم ابنه إبراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخرى يهاجمون أفريقية بزعماء رجل جديد يسمى أبا حاتم وتمكن أبو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقال ، فنجأ ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة في إقليم الزاب وهنا استقر وأخذ يمهّد الأمر لنفسه .

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهي بلد بعيد عن مركز الخلافة ، تعيش فيه جماعات متحاربة متعادية ، بعضهم من أهل السنة وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب وبعضهم بربر . وكان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلك البلد ، فانتهى رأى أبي جعفر إلى أن يولى هذه الناحية واحداً من كبار رجاله ذوى الكفاية ، ويطلق يده في الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفريقية من الفوضى والقلق . ووقع الاختيار على رجل من بنى المهلب بن أبي صفرة ، ذلك القائد الإداري الكبير الذى عاش وعمل في العصر الأموي . وكان المهالبة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الرجل هو أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى . ووصل ذلك الرجل إلى أفريقية سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ، وبدأ بذلك عصر قصير مدته خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبي في أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل

لم يذهب وحده ، بل أخذ معه نفرأ من أهل بيته من آل المهلب ، وقوة عسكرية كبيرة . وكان المهالبة في جملتهم أهل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسنرى أن عصرهم القصير سيكون عصراً حاسماً بالنسبة لتاريخ أفريقية كولاية إسلامية ومركز من مراكز السنة والجماعة ، وكذلك بصفتها مركزاً من مراكز العروبة . وكان على أبي حفص عمر المهلبى أن يواجه الخوارج الإباضية ، الذين كان يتزعمهم أبو حاتم وتمكن أبو حفص عمر من الانتصار عليه أول الأمر ، ولكنه انهزم وقتل سنة ١٥٤هـ / ٧٧١ م — وحل محله واحد من كبار المهالبة ، بل من كبار العرب في عصر أبي جعفر المنصور ، وهو يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم أبي حفص . وكان يزيد يتولى أمر مصر فأمره أبو جعفر بالمسير إلى أفريقية فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ م وبدأ في تاريخ أفريقية عصراً من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يزيد بن حاتم سيداً عربياً يتميز بكل ما يتميز به سادة العرب في تلك العصور من رياسة وشهامة وكرم ، وكان الشعراء يمتدحونه ، إذ أنه كان بعيد الصوت في دولة بنى العباس . وتمكن هذا الرجل من إقرار الأمور مستعيناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجند الخراسانى ، الذى كان في ذلك الحين عماد القوة العباسية . ولابد أن نلاحظ أن مانسميه بالجند الخراسانى لم يكن كله ولا جلّه من الموالى ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق في المقام الأول على عرب خراسان ، أى العرب الذين ولدوا في خراسان ونسبوا إليها . والجند الخراسانى الذى سار مع أبى مسلم الخراسانى للقضاء على بنى أمية ، كان في غالبية جنداً عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فرس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هذا عن طبيعة الجند الخراسانى الذى اعتمدت عليه الدولة العباسية ، يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولة فاتحة ولم تشتهر بالقوة العسكرية ، ولهذا لم يفتح بنو العباس شيئاً زيادة على ما فتح بنو أمية ، وكان قصارى جهدهم المحافظة على الموجود .

ولكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التي اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكفايته الشخصية ، أن يقر الأمور في أفريقية ، ويقيم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أى من سنة ١٥٥ — ١٧١ هـ / ٧٧٢ - ٧٨٧ م .

### جهود يزيد بن حاتم في أفريقية :

حكم يزيد بن حاتم أفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على أفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

### دخول المذهب المالكي إلى المغرب وتحول أفريقية إلى حصن السنة والجماعة في المغرب :

والمذهب المالكي هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الفقه الإسلامى ، وهو أولها ظهوراً ، فقد توفي مالك بن أنس منشىء هذا المذهب ، ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس في مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أى جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين في الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أى إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والأصول عند مالك هى : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أى أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيد في هذه القضية ، قاس الأمور على نظائرها واستعان في ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخراج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكي بمذهب الرأى ، وهو عندهم رأى مالك . ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الإنسان محيراً بين آراء شتى ، كما نجد في المذهب الحنفى الذى أنشأه أبو حنيفة النعمان بن ثابت . ويمتاز المذهب المالكي بنصه نصاً واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة

المسلمين ، والمحافضة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقي هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الناس . وارتفع شأن مالك وأصبح نموذجاً لرجل العلم في تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارفاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال على الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربة من سلطان . وكان رجلاً حسن السمعة عظيم الهيبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطلابه في هيئة جليلة ، ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيبة السلاطين ، وكان يعطى ذلك بقوله «إنما أرفع جاه العلم» . ومن هنا أعلى مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه في الحياة ، أو ما يسمى بشمائل مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم .

ولهذا نجد أن دخول المالكية في المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهي ، وإنما هو دخول أسلوب حضاري ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأهله إلى مستوى اجتماعي بل سياسي ، جعل العلم رمزا من رموز القوة والسلطان . وإذا كان تاريخ المسلمين قد انحرف في العصر العباسي الثاني ، حتى أصبح السلطان في يد الأجانب عن البلد في كل مكان تقريباً ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة في معظم بلاد المسلمين ، وحرّم أهل البلاد في كل بلاد الإسلام من حقهم الشرعي في تولي أمور بلادهم ، فقد اتجهت همة الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة . وضرب لهم مالك المثل في ذلك ، بما ذكرناه من خصاله وأسلوبه في الحياة والعمل ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهد الطامحون من شباب أهل العلم في محاكاة مالك بالسير في طريقه والتأسي به في أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم . وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر في بعض البلاد ، وأصبح رجال العلم أي الشيوخ ، هم رؤساء الناس في كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذي قام به مالك بن أنس وتلاميذه .

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقتفوا أسلوبه في التدريس وفي الحياة ، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً كالذهب المالكي ، يجمع الناس على رأى واحد في القضية الواحدة ، دون أن يفرق أذهان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيهم مالهم ويأخذ حقه منهم ، فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندما لقي الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يرانى الناس ساعياً إلى السلطان حاملاً حديث ابن عمك رسول الله ﷺ » ، فأعجب رده الخليفة وزاد من قدر مالك في نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم حسن التصرف ، جميل السمات ، فزاد في كرامته في حين أن أبا جعفر المنصور أهانه واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم في المساجد ، ومنهم نفر من أجل مؤسسى الفقه الإسلامى ، كالإمام الأوزاعى ، الذى انتشر مذهبه في الشام كله ووصل إلى الأندلس . ولكن مالكا كان أستاذاً بمعنى الكلمة — نظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه ، واتخذ في داره مجلساً للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس .

وكان مالك لا يجلس للإلقاء إلا في أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة وكان يطلب إلى تلاميذه الصمت التام أثناء إلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل شيئاً فيكون ذلك في آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا آنس من تلميذ استعداداً حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المغربى القيروانى البهلول ابن راشد . ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه في الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه . وبالفعل كان هناك طلاب يفرغون من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يمضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخى المذهب ، بشمائل مالك ، وأهمها إلى جانب العلم الغزير ، احترام النفس والترف عن الصغائر وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام . وكان مالك يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق الناس عليه لقب « أمير المؤمنين في الحديث » ، ولا غرابة كذلك في أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالكا في بلده ، رجلاً غزير العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه . هذه الناحية تهمنا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ووقفوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس في بلادهم . حقا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطان سياسى ، إما مستقلين ببلادهم أو تابعين لدولة الخلافة في بغداد ، ولكن الناس اختصوا الفقهاء بثقتهم واعتبروهم قاداتهم وأصحاب الرأي فيهم ، في كل مكان انتشر فيه المذهب المالكي ، في المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مالك في المغرب نفر من أجلاء الشيوخ من أمثال عبد الله بن فروخ الفارسي وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن القرات ، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً ، وقد اكتسبوا الكثير من خصال مالك وتمكنوا من مذهبه ، وسمع بعضهم كذلك على أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، فقيه العراق وصاحب المذهب الحنفى المعروف . ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمالك دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلوا المذهب المالكي هو المذهب المقرر المعترف به رسمياً في أفريقية ثم في بقية المغرب بعد ذلك . وعلى أيديهم بدأت المالكية في المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهي بل كانت عنصراً حضارياً له أثره في كل نواحي الحياة في المغرب الإسلامى ، ويكفى أن نشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقاداتهم ، في حين توالى أخطاء رجال السياسة وشيوخ القبائل ، ما بين صنهاجيين وزناتيين ، مما أياس الناس منهم ومن الحكومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحافظون على أمة الإسلام في أفريقية ملتفة حول مذهب السنة والجماعة ، وقد رأينا كيف تمكن حنظلة بن صفوان الكلبى ( ١٢٤ - ١٢٧ هـ / ٧٤٢ - ٧٤٥ م ) من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج ، ما بين صفرية وإباضية والاحتفاظ بها جزيرة سنية ، تعصم بها السنة والجماعة ، وكان هذا

في حقيقة الأمر إنقاذاً للإسلام في المغرب كله ، ولذلك يعتبر حنظلة بن صفوان الكلبي هذا ، من بناء تاريخ المغرب الإسلامي .

نعم إن الأخطار لم تتلاش ، وعاد الخوارج يحاولون انتزاع أفريقية نتيجة لسوء سياسة عبد الرحمن بن حبيب الفهري وآله ، ولكن أهل أفريقية نجحوا في التمسك بوحدة قطرم المذهبية والفكرية ، فثبتت أفريقية بفضلهم لمحاولات الزعيم الخارجي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، الذي دخل القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قادمين من طرابلس ، بحجة إنقاذها من الخوارج الصفرية ، وانتهى الأمر بانتصار محمد بن مقاتل العكي العباسي ، وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبي الخطاب في صفر ١٤٤ هـ / مايو ٧٦١ م ، وانتصار حنظلة بن صفوان ثم محمد بن الأشعث ، الذي عبد الطريق أمام العباسيين ليرسلوا إلى أفريقية عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب في صفر ١٥٦ هـ / يناير ٧٧٣ م ، وهو أول المهالبة ومنهم يزيد بن حاتم الذي نتحدث عنه الآن ، والمهالبة هم الذين ثبتوا مذهب السنة والجماعة في أفريقية ، وعلى أيديهم تلاشى كل خطر خارجي على أفريقية . واتجه الخوارج إلى المغرب الأوسط خارج سلطان الدولة العباسية حيث أنشأوا إمارة الخوارج الإباضية ، على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وتلك هي الدولة الرستمية الخارجية الإباضية التي اتخذت من تاهرت قاعدة لها ابتداء من سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وسنتحدث عنها في حينها .

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهاء ، وما بذله يزيد بن حاتم من جهود مركزاً للعلم الإسلامي ، لا يقل عن البصرة والكوفة والقسطاط ، وهي حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضاري في المغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الدولة العباسية تترك أمر أفريقية في أيدي أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية وأهمهم بعد يزيد بن حاتم أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عنه كفاية وقدرة ، وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حاتم الذى تولى سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصفاً تقريباً فإن جند أفريقية والمغرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآله ، بكل الوظائف والولايات الكبرى فى البلاد ، وثاروا عليه بقيادة عبد الله بن عبدويه بن الجارود قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد ونفر آخر من القواد من عزله ثم قتله سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م وتقاسموا الإدارات والنواحي فيما بينهم .

وهكذا انتهت رئاسة المهالبة فى أفريقية بعد حوالى ربع قرن من أواخر أيام أبى جعفر المنصور العباسى ، إلى أوائل أيام هارون الرشيد . وفترة المهالبة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغرب الإسلامى - ففى أثنائها استقر الأمر للمذهب السنى بصورة نهائية فى أفريقية ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيال الأولى من العرب البلديين ، بعد أن فشلوا فى السيطرة على البلاد ، وحلموا كما رأينا فيما رويناه من أخبار محاولة عبد الرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البلاد فى الفوضى والاضطراب . وبعد ذلك اندرج معظم العرب البلديين فى أفريقية فى غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد فى تعريب البربر ونشر الإسلام السنى بينهم .

وهؤلاء العرب الذين أصبحوا مغاربة هم الذين يسمون « عرب الفتح » وستظل جماعة منهم تطلب الحكم ، ولكن غالبيتهم العظمى انصرفت عن السياسة ودخلت فى الناس وكان لهم أثر بعيد فى تعريب المغرب .

\*\*\*

## نهاية عصر الولاة وبداية عصر الدول المحلية فى افريقية والمغرب

بعد نهاية المهالبة عاشت أفريقية سنوات من الفوضى ، إذ اشتد تنافس زعماء العرب فى البلاد فى الوصول إلى السلطان فى القيروان أو فى الانفراد بالسلطة السياسية فى نواحيهم ، وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضم - كما قلنا - ولايات طرابلس وأفريقية ( تونس ) والزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية ( ويقابل اليوم محافظة قسطنطينية ) وبذلك الدولة العباسية - كما رأينا - جهوداً ضخمة للمحافظة على هذه الولاية تابعة لها داخل إطار السنة والجماعة ، وقد رأينا ما بذلته من جهود فى ذلك السبيل ، وقد توجت هذه الجهود بانتصار **حنظلة بن صفوان** فى موقعتى القرن والأصنام بجهود المهالبة ، التى ثبتت - كما رأينا - قواعد النظام والسنة والجماعة فى أفريقية ، وجعلت منها جزيرة أمان واستقرار نسبى وسط المغرب ، الذى اجتاحتها الفتن وحركات الخوارج من كل ناحية .

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغم جهودها أن تمد سلطانها إلى أبعد من إقليم الزاب غرباً ، وقد قرر الجغرافى **اليعقوبى** ، الذى زار أفريقية فى عصر الأغالبة ، أن منتهى سلطة العباسيين غرباً ، كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلى نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسى حقيقى .

هنا ، فى ذلك الفراغ السياسى الذى امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قامت أول الأمر وبعد الفتنة المغربية الكبرى ، إمارات محلية كثيرة ، معظمها خارجى زعمائها عرب معادون لدولة الخلافة أو بربر مستعربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة **أبى قره المغيل** الخارجى الصفرى ، الذى نادى بنفسه إماماً وخطب بأمير المؤمنين مدة أربعين سنة فى إقليم تلمسان .

ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة نكور التي أنشأها حوالى سنة ٩٦هـ / ٧١٤ م زعيم عربى يسمى **صالح بن منصور الحميرى** ، فى قطعة من ساحل المغرب الأقصى ، تمتد من مليلة إلى الحسيمة ، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون . ولكن هذه الدولة كانت سنية ، وقد شدت أزر نفسها بالدخول فى ولاء بنى أمية الأندلسيين ( قامت دولتهم سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦ م ) وكانوا سنية متشددين ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة فى نصره السنة فى المغرب الأقصى . وقد عمرت دولة نكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف فى أثناء الصراع الطويل بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى . ولم تنته إلا على أيدي المرابطين فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ( النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ) .

### أفريقية من المهالبة إلى بنى الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهى موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد فى بابه ، هو **هرثمة ابن أعين** ، وكان من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً فى الحروب والولايات ، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً ، لأن المشكلة الرئيسية التى كانت تقلق بال الدولة من ناحية أفريقية فى ذلك العصر ، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون فى المعسكرات فى سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحربهم بعضهم مع بعض ، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة . وقد رأينا ما صنعه **عبد الله بن عبدويه بن الجارود** مع **الفضل بن روح ابن حاتم** . أقبل **هرثمة بن أعين** إلى أفريقية وهو عربى صريح ، وفى نيته أن يضع حداً لفتنة أولئك الأعراب كما كان الناس يسمونهم فى ولاية أفريقية .

حكم **هرثمة بن أعين** أفريقية سنتين ( ١٨٠ - ١٨١هـ / ٧٩٦ - ٧٩٧ م ) هابه أثناءها رؤساء العرب وركنوا إلى الهدوء . وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تخرب من المدن والموانئ والمنشآت وليعيد ثقة الناس فى الدولة .

وقد اهتم هرثمة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق في القيروان واهتم ببناء قصور العباد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به في أفريقية شىء يشبه الدير عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكى يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشتراك في محاربة أى عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم في العبادة وحماية أرض الإسلام .

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون في قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة : يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة .

وفي العادة يبنى القصر على هيئة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين : الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ، ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الآخرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقوم من الليل ، ثم ينام ليصحو مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم في أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار ، وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون في العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاهاً وهيبه في القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التى كانت تضم في بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر في العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للتقوت بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا مالاً حلالاً .

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، في إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الأغالبة بالرباطات ، فأنفقوا عليها بسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المنستير على الساحل الشرقى لتونس ، وهو بناء جميل ، رُممته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية في المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب في سوسة ورباط تونس ورباط بونة التي تسمى اليوم عنابة إلى جانب رباط المنستير .

وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء في صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا في الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السني ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة في أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته في أفريقية وأقر الأمن في البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتاقت نفسه للعودة إلى بغداد .

#### أصل الأغالبة : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الوالي محمد بن مقاتل العكي إلى أفريقية كلفت الأغلب بن سالم ابن عقال بالمسير معه في نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والياً على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقال في حرب الخوارج ، فأقام هرثمة ابنه إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم في مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب ، وأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقرّبه وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، اقترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاملاً على أفريقية ، فاشترط إبراهيم على دولة الخلافة أن

تقييمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسي ، ثم إنه رأس التميميين وهم أكثر عرب أفريقية ، وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب . وقد اقترح إبراهيم بن الأغلب على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسي تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكي يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاغبين من أمثال الحسن بن حرب الكندي ، وكان زعيم جند العرب في تونس . فأجابته الخلافة لما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية في بنى الأغلب ماداموا على الطاعة والولاء ، ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق في تعيين قاضى القيروان ، وأن يكون للخليفة الحق في عزل الوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم بدله أغلبياً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله ، وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ أفريقية : تجربة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .

\*\*\*



## دولة الأغالبة فى أفريقية ( ٢٩٦-١٨٤ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ م )

كان قيام دولة الاغالبة فى أفريقية ، التى كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط هو إقليم الزاب ، تجربة جديدة فى نظم الحكم الإسلامية فللمرة الأولى تعهد الخلافة إلى رجل من المغرب فى الانفراد بولاية من ولاياتها ، ليحكمها حكماً شبه مستقل فى نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل للبيت العباسى ، والشرط الوحيد الذى اشترطته الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها ، وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

نقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد فى مراجعنا عن هذا الاتفاق وهو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامى يخلو من الوثائق الرسمية فى معظم عصور تاريخه ، وكل ما تقوله المراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التى ذكرناها . ويبدو أن هرثمة بن أعين كان له دور فى ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفى إخلاصه لبيت بنى العباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن سالم بن عقال وهو من تميم ، القبيلة العربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جند مصر وندبه الخليفة مع محمد بن مقاتل العكى الذى أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج .

وقد قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى الصراع بين رجال الدولة العباسية

والخوارج ، وكان ابنه إبراهيم مقيماً في إقليم الزاب مع قومه من تميم ، فلما قتل أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شاباً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وفصاحته . ويبدو أن هرثمة هو الذى توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة في شأن أفريقية ، وتمكنت بعد جهود مضنية من المحافظة عليها في إطار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها . وكان إبراهيم بن الأغلب شاباً طموحاً يرى نفسه أهلاً للولاية ، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئون أفريقية مع بقائه على الولاء للبيت العباسي . واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية في يد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها ، وهى جد ثقيلة كما رأينا . على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

### حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبراهيم بن الأغلب من ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١٢ م ، وقد حكم أفريقية في ظروف عسيرة ، فلم يكن له من سند عسكري إلا قوة يسيرة من التميميين والجند الخراسانيين ، وكان خصومه كثيرين من العرب البلديين ، الذين لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرياسة ، وأعلنوا عليه حرباً عنيفة طويلة ، ظلت مستمرة طوال العصر الأغلبى الذى دام أكثر من مائة سنة ، إذ ينتهى حكم بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على يد الفاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم الحسن بن حرب الكندى وعمران بن مجالد الربعى ، وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على نفر كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ، ولكنه لم يقض على روح التمرد والعصيان عليه وعلى آل بيته ، التى انتشرت في رؤساء جند أفريقية العربى ومن انضم إليهم من العرب الذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضى بأن يؤدى إبراهيم ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف دينار في السنة ، ويستغنى عن ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر معونة لوالى أفريقية ، فكان كل خراج أفريقية الذى كان يعود إلى الدولة العباسية ١٤٠,٠٠٠ مائة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ زهيد جداً ، ولكن إبراهيم بن

الأغلب اجتهد في استخراج مال كثير من أفريقية ، حتى بلغ إيراده فيما يقال نحو المليونين من الدينانير في السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الجسيم بين ما كان الولاة يرسلونه إلى الخلافة من خراج أفريقية ، وما كان يتحصل منها فعلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الولاة في تلك العصور أو قلة أمانتهم بتعبير أصح .

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغلبة ولكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبلية لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به بالمال . وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين :

( ١ ) البربر المستعربة : الذين عملوا جنداً مرتزقة في الجيش الأغلبي .

( ب ) ثم الصقالبة : وهم جند من أصل أوربي كانوا يشترون صغاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوربا ويربون تربية عربية إسلامية ، ويتخذون بعد ذلك جنداً وخداماً للدولة في القصور والوظائف . وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة ، خلال السنوات الأولى من حكمه في أفريقية .

### إنشاء القصر القديم :

في نفس الوقت عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولأهل بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون في الغالب منفصلين عن رعاياهم ، معتمدين على جندهم المرتزق ، وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربي من القيروان ، أنشأ فيه مدينة صغيرة ، هي في الواقع حصن لبית الحكم ، وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم ، وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده ، وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم في البلاد . وعندما تم ذلك لإبراهيم أمن على نفسه

ومصيره ، وسار في حكمه على طريقة الحكام في تلك العصور ، أى أنه أصبح معتمدا على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التى كان رجال الدولة يجبرونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم مدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وآل بيته ومساكن حواشيه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التى كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربى المعادى لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز في معسكرات في المدن الكبرى وخاصة في تونس ، التى تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت الحاكم . وطوال العصر الأغلبى نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغلبية والجند العربى ، وخاصة في أيام زيادة الله بن الأغلب الذى ارتكب معهم فظائع رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبى أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً في تاريخنا العربى من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامى أن العرب لم ينهزموا أمام غير العرب إلا في النادر ، ولكن الذى أهلك العربى في كل مكان هو عربى آخر .

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبى أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورخيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية في الظهور ، وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت في بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التى تذكر منهم كانوا اثنين : إبراهيم ابن الأغلب الذى تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبى عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطرباً ، اختلت الأحوال أثناءه اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته .

وينقسم تاريخ العصر الاغلبى فى جملته الى ثلاث فترات : فترة التأسيس من ١٨٤ - ٢٢٣ هـ / ٨٠٠ - ٨٢٨ م ، وتشمل إمارات إبراهيم بن الاغلب وابنيه أبى العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ - ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ - ٩٠٢ م ، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الاغلب المعروف بالاول من سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م الى نهاية حكم أبى عبد الله محمد ( الثانى ) ثامن أمراء البيت الاغلبى ، الملقب بأبى الغرانيق لولعه بصيدها ، وذلك فى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م . وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الاغلبى من حيث الملكات ، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهذات أحوال أفريقية بصورة عامة .

ويرجع معظم السبب فى ذلك الى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغانم ، تاركين أمراء بنى الاغلب فى سلام ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد ، معلناً بداية التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التدهور وتستمر من ٢٨٩ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٩ م . ولكن فترة الاستقرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزدد على ثلاثين سنة على الأكثر . ولكن هذه الأسرة ، على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها ، فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلامية الذى أوجزنا الحديث عن جهاده فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء فى نطاق الأمة الإسلامية العامة ، كان فى حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشيء ، كى تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيها من الانقلابات وتغير الأحوال . وقد أتاح له بنو الاغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا فى بلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الاغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت ، فكان العصر فى جملته ، رغم كثرة حروبه واضطراباته ، خيراً على أفريقية ، وخطوة واسعة إلى الامام فى بقاء المغرب الإسلامى .

وقد تكلمنا عن إبراهيم بن الاغلب ، وسنتكلم الآن عن اثنين من أمراء البيت

الأغلبى هما زيادة الله بن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجال للتحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

### زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ - ٢٢٣هـ / ٨١٦ - ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه أبو العباس ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فجاء بعده أخوه زيادة الله . وزيادة الله كان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذى استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة . وتكلف ذلك الجند المال الطائل ، يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبدأوا يشغبون على الدولة ، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند ، لا عمل لهم فى الحقيقة ورواتبهم فى زيادة ونوعهم فى تدهور فكان لابد له من أن يفكر فى مخرج من تلك الأزمة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود . وتلك هى المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

### فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابد له معها من أن يجد لهم مخرجاً . والحقيقة أن فتح صقلية تأخر ، فهذه جزيرة كبيرة على أبواب أفريقية ، وقريبة من سواحل بلاد الإسلام . وإنه لمن الغريب أن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان . ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية سارت فى الكثير جداً من الأحيان دون خطة مرسومة ، لأنه كان ينبغى أن يجىء بعد تمام فتح أفريقية دور صقلية؛ خاصة وأن بينها وبين شواطئ أفريقية جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريا ( جزائر قوصرة عند العرب ) وتتبع إيطاليا ، وكذلك جزر مالطة ، وكلها دخلت فى حوزة الإسلام مع فتح صقلية . وكان تفكير زيادة الله فى فتح صقلية قديماً يرجع إلى بداية ولايته ، فقد تكاثر جنده وأصبحوا يسببون له المتاعب ، ثم إنه ورث عن أبيه ملكاً مستقراً وثروة طائلة ، فتاقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامى ، وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة تشجع على التدخل فيها ، ومازال يفكر فى الأمر ويعد له حتى إذا كانت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع فى تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية في ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ، يحكمها بطريق ، أى قائد عسكري يسمى بيلاتوس ، ويعرّبه العرب « بلاطة » ، يعتمد على قوة عسكرية قليلة . وكان يرهق السكان بمطالبه المالية ، فكانوا في حالة تدمير عليه وضيق بالحكم البيزنطي كله . أى أن الجزيرة في الحقيقة كانت منطقة فراغ سياسى .

ولو أن العرب كانوا في ذلك الحين على قوتهم المعهودة فيهم ، لما استلزم فتح صقلية أكثر من عامين أو ثلاثة ، كما حدث بالنسبة للشام ومصر . ولكن نوع الجند العربى كان قد تغير ، ولذلك فإن جزيرة صغيرة نسبياً كهذه ، استلزم فتحها نحو السبعين سنة ، ومع ذلك فلم يتم سلطان المسلمين عليها بصورة كاملة إلا في أواخر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تاسع أمراء ذلك البيت الأغلبى وستحدث عنه .

والسبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائداً رومياً يسمى يوفيمىوس Euphemius ( فيمى ) ثار على الحكم البيزنطي واستقل بشرق الجزيرة وتحصن في سرقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله ، فاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجند . وقد دعا زيادة الله بن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا في ميناء تونس وميناء سوسة واختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيهاً هو أسد بن الفرات وذلك أمر مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ، ولكن يبدو أن زيادة الله لم يكن واثقاً من قواده فنذب هذا الشيخ أسد بن الفرات . وكان أسد فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م في العراق ثم قدم به أبوه - وكان من رجال الحرب - مع القائد محمد بن الأشعث واستقر في القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ طريق العلم فدرس على شيوخ بلده ، ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فدرس في العراق على أصحاب أبى حنيفة النعمان ، ثم على أصحاب مالك في المدينة ، ودرس الموطأ لمالك ، ثم درس على محمد بن القاسم في مصر ، وعاد إلى القيروان فقيها حسن التكوين ، فدون ما سمعه من الموطأ في كتاب سماه « الأسدية » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره في أفريقية . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جندياً عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة فوافق .

على أى حال كان أسد في السبعين من عمره عندما جاءت هذه القيادة ، فخرج بالكتلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل في ميناء « مازر » على الساحل الجنوبي لصقلية ، وفي نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت في ميناء في أقصى الساحل الجنوبي إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لنجدة القائد البيزنطي ، الذي خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا في موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان ينبغي على أسد بن الفرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولى عليها ، وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامي للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجرينت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصر يانة<sup>(١)</sup> ، ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين ( فيمي ) وحاصر سرقوسة ، وفي أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة فمات في الوباء . وكانت قد أصابته في القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته في ربيع الثاني ٢١٢ / يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطي بيلاتوس وهاجم قصر يانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطروهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا في حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذي لم يتبع الخطة المثلث التي جرى عليها

---

( ١ ) Castrogiovanni وتسمى الآن Enna وهي في وسط الجزيرة وفي الطريق من مازر إلى سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة Siracusa .

المسلمون إلى ذلك الحين في فتوحهم ، وهى الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة ، وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح . ومن القواعد المعروفة فى العسكرية أن كل حملة لا تصل فى الدفعة الأولى إلى غايتها ، تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدھا وتفقد قوتھا تبعاً لذلك .

### تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وکیل المعروف بفرغوش :

بذلك تخرج مركز المسلمين خاصة وأن خيرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم فى وباء سرقوسة ، ولم يبق فى الجيش إلا الجند الخراسانى ومتطوعة البربر ، ولم يجد المسلمون فى تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها ، فظلوا متحصنين فى بلدة مناو فى انتظار المدد الذى طلبوه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين فى صقلية حرجاً .

فى هذه الظروف نفاجأ بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وکیل المعروف باسم فرغوش . ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصرانية فى الجزيرة فأسرعوا لعون إخوانهم . على أى حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لمناو ، وفك حصار المسلمين ، وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون ، رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغلبة ، إلى قصر يانة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا للمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وکیل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام ، وبذلك أتاحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصر يانة ويتخرج مركز المسلمين مرة ثانية ، ولكن زيادة الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد .

هذا القائد هو أبو فهر الأغلبى ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرد بقية القوة البيزنطية فى الجزيرة ثم تولى ، وتولى بعده أخوه أبو غالب فاتم

الاستيلاء على العاصمة ، وفي تلك الأثناء مات زيادة الله بن الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكادت الحملة تفشل مرة ثالثة . ولكن أبا غالب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين في النصف الغربي من الجزيرة ، وبقي عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقي . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، وفقد حماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة إلا في أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى كما سنرى .

وبينما تعاقب القادة والولاة على الجزيرة تمكن المسلمون من التقدم في الشمال والشرق ببطء شديد ، وكانت جماعات المسلمين تهاجر إلى الجزيرة وتستقر فيما فتحه المسلمون فيها ، فنشأت في كل مدن الوسط والغرب جاليات إسلامية كبيرة ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقى في الجزيرة من الروم ، أى أن عملية دخول صقلية في دعوة الإسلام سارت في طريقها رغم كل شىء .

وكانت العاصمة الرسمية لصقلية الإسلامية مدينة بلرم ، نظراً لجودة مينائها وحصانة أسوارها . ولكن مركز النشاط والعمل كان في مدن الشرق والوسط وخاصة مازر وجرجنت وقصريانة في وسط شبه الجزيرة ، وقد انتشر المسلمون في نواحيها وعمروها ، وعمرؤا كذلك معظم مدنها مثل مازر وجرجنت ورجوسة وسرقوسة وبعض مدن الساحل الغربى مثل بتشينة وقطانية وميقش وطبرمين ومسينا التى تسمى جبل النار نسبة إلى بركان أتنا الذى يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر في صقلية لم يستقر للمسلمين تماماً إلا خلال فترة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئاً فشيئاً إلى بلد إسلامى تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ، الذين دخلوها . ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم في الإسلام واستعربوا وأنشأوا حضارة إسلامية في صقلية ، وما زالت آثارهم فيها باقية إلى اليوم ، في هيئة قصور وبقايا مساجد وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضارى . فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركز علم عربى . وفيها عاش وعمل - بعد سقوط صقلية في يد

النورمان — الجغرافى المشهور « الشريف الإدريسى » الذى كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليايس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أى أنه حَوَّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافى الإنجليزى مركاتور فى القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التى ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التى كان الإدريسى أول من تنبه إليها وطَبَّقَهَا . ثم وصف الإدريسى كرة الأرض وخريطتها التى رسمها فى كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسى بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافى مفصل للكرة الأرضية .

وفى أثناء حكم أبى العباس محمد بن أبى عقال الأغلبى سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقى للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراعة ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافى اليعقوبى « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » فى العام ( ٢٦ مليون درهم ) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة فى القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التى هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أى قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفى فى ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٣ يونيو ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى فى أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعتَه فى مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسناته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبة جميعاً .

### إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلى والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرأنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة ، وهى مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

الماء . ومن هذه الصحاريح واحد سمي البحر ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ، وإليه ينسب الماجل العظيم كما يسمى ، والجمع مواجل ، والماجل هو حوض ماء يبني بالحجر ليتجمع فيه ماء المطر ، وما زلنا نرى في خارج القيروان إلى يومنا هذا مواجل الأغالبة . وهي من أجمل آثار البلاد ، وقد اكتملت في أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على الشواطىء . وكانوا ينشئون في كل محرس برجاً للنار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس في أقل من ليلة . أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان ، فكانوا يوقدون في النواطير أخشاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرى من بُعد .

بعد ذلك نجد أن هذا الرجل يصاب بمرض عصبى تختل معه أعماله ونظراته إلى الأمور . والمؤرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليه النوم وزادت مخاوفه ، فأقبل يقتل الناس لأقل ريبة ، وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس وقرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكون من أعماله ويطلبون عزله ، ولكنه تنبه لنفسه شيئاً فشيئاً قرب نهاية حكمه . ويبدو أن الذى نبهه هو الخطر الفاطمى ، ففى ذلك الحين كان أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين قد ثبت أقدامه في منازل قبيلة كتامة التونسية ، وبدأ يغير على بلاد الأغالبة فخاف إبراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد في لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسى أرسل إليه أمراً بالـنـزول عن الحكم وتولية ابنه أبى العباس عبد الله مكانه .

### حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالبة :

قلنا : إن بنى الأغلب كانوا تجربة جديدة في حكم ولايات الدولة العباسية ، وإن كانت استمراراً لتجربة آل أبى حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذى دامته دولة الأغالبة ، تقدمت البلاد تقدماً كبيراً محسوساً ، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

العامّة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلبى قد بدأ سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب البلديين ، فقد انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا في أقصى الطرف الغربى لبلاد الأغالبة بل في إقليم تاهرت في المغرب الأوسط ، ولم يكن داخلاً في دولتهم ، وكذلك كانت هناك جماعات إباضية صغيرة في بعض نواحي طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ، ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما في ذلك القيروان ، والمدينة الوحيدة التي كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التي احتلت بسرعة مكان قرطاجنة فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالأبنية والمنشآت . وكان ليزيد بن حاتم دور كبير في تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها ، وكذلك اهتم هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ، ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين ، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاؤهما صورتها الباقية إلى اليوم . وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع بناء بدائياً ، ثم جده حسان بن النعمان وأكملته حنظلة بن صفوان ، ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مثذنته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد أنفق في ذلك مالا جزيلاً طوال سنوات كثيرة . وكان يقول : « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتولييتى أحمد بن أبى محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة في جامع

تونس الذى كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بناه سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلبى ، فهو الذى أعطاه صورته البديعة التى يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذى أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان ، وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

وكان الذى بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط فى أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة : إحداهما فى تونس والأخرى فى سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة فى تاريخ النشاط البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط .

ومن نماذج المنشآت العسكرية فى عصر الأغالبة الرباطات ، وهى شبيهة بالقصور التى ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقى لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدى بعضها إلى بعض ، وهى تستعمل للنوم والأكل ، ويلبها صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهى تفتح أو تطل على صحن الرباط وفى ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيهه برباط سوسنة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ، والرباط طابقان يخصص الثانى للحراسة والعبادة ، وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وفىما يتعلق بالعمارة المدنية أشرنا إلى مدينة القصر القديم التى بناها إبراهيم ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوبى القيروان ، لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شئ ، وكانت قد سميت بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً لها عن القصر الجديد ، وهو مدينة رقادة التى بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب عناية ببناء صهاريج المياه وجباياه ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا فى باطن الأرض ، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو العشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطفى بالبلالط الذى لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدي من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة أو القبو السفلى عند الماء ، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم . وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم بالسلالم .

وأكثر الأغالبة كذلك من بناء المواجل وهى أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهى دائماً مكشوفة وقد يقام فى وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من

الآثار الجميلة التي تستحق المشاهدة . ويطلق المؤرخون الحديث عن القصور والمنشآت التي بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في مدينته المسماة « رقادة » ويقولون: إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفي هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبى العباس عبد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالبة ، بركة أو ماجلاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة . وأجرى إليه الماء بالسواقي ، وسُمى هذا الماغل الفسيح بالبحر ، وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق في إنشائه ٢٣٢,٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالبة ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترك هذا الأمير بلاده ومملكه ومضى ، ولم يكن يستحق الإمارة على أى حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليرث ملكه .

### الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالبة ، لم تكن تمس الحياة العامة للبلاد إلا في حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها ، دون أن تعطى اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا في حالة ما إذا دار القتال في المدن أو في المزارع ، ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، فأخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الأفريقى طريقها وصورها التي ثبتت عليها بتوالى الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردت إلينا في تراجم العُباد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التاريخ نرى كيف انتظم المجتمع الأفريقى في القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف في المجتمعات الإسلامية في تلك العصور ، وتحمل في نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس في المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفي هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامى كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبى عثمان سعيد بن الحداد وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً .

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بنى الأغلب رغم حياتهم الطويلة في أفريقية ، لم يصلوا أبداً إلى الاندراج في حياة البلاد ، وظلوا منعزلين في عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا ليتصلوا بالحكام إلا في حالة الضرورة القصوى ، لأنهم بصفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون في جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغي للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثر اعتذار الفقهاء عن تولى القضاء ، وفي أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغمونه على القيام بالقضاء .

وهنا تبرز شخصية سحنون واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخى ، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأول وتوفى سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبابة ، وتعرض

للأذى على يد زيادة الله الأول الذى اشتدت محنة خلق القرآن فى أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة، وقد تولى سحنون - الذى ولى القضاء بعد المحنة - الانتقام من عبد الله بن أبى الجواد القاضى الأسبق الذى امتحن القضاة وأذى بعضهم، فجلده حتى مات. وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبى الجواد إلى آخر أيامه.

وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عُرفَ للسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف « بالمدونة »، وهى كتاب فقه على المذهب المالكى، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً فى نفس الوقت. وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى.

وكان طلاب العلم كثيرين، والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً، فلا نسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا فى النادر، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية فى أفريقية وقلة السكان.

وكان الناس يزرعون كثيراً من الزيتون والقمح والبقول والشعير، وكانت المزارع متسعة وآمنة، ونسمع كثيراً عن المحاصيل وأسعارها فى القيروان وتونس. وقد اشتهرت أفريقية فى ذلك العصر، وكل عصر، بالزيتون والفواكه، ونخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رَخيّة، ولدينا كذلك ما يدل على أن مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة فى مدن أفريقية كلها، وأن أفريقية كانت تسير رغم كل شىء فى طريق تقدم فكرى ومادى محسوس، فكان هناك أطباء ذوو مكانة كبيرة ومستشفيات تسمى « بالدمنات »، وكان الناس يتبرعون لها بالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة.

وتدل الإنشاءات الكثيرة التي ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا في مستوى رفيع ، وفي نهاية العصر الاغلبى ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بالذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة في العالم الإسلامى .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية في الناحيتين الأخرين اللتين تكونت منهما دولة بنى الاغلب وهم طرابلس وبلاد الزاب ، فالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتضح فيما بعد ، أى خلال القرن الخامس ومابعده بفضل كتابات رحالة كثيرين أولهم اليعقوبى ثم ابن حوقل النصيبى .

والخلاصة أن العصر الاغلبى على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة في تاريخ أفريقية ، فقد انتقلت أفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشرى والفكرى ، إلى بلد واضح المعالم والسمات ، له مدنه الزاهرة ومدائنه العامرة تزينها المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذى ينتج غلات وفيرة ، وسكانه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، وممن كان يفد باستمرار من الخراسانيين والأندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامى في عصره الذهبى .

### دولة الرستميين في تاهرت :

الطريف في تاريخ المغرب الإسلامى أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب في ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها في غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهالبة وبنى عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين في تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً في تاريخ المغرب فقط ، بل في تاريخ الإسلام العام ، فللمرة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمامة إباضية خارجية ، فقد كان الخوارج ينادون دائماً بالدولة المثالية ، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة ، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه . وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينتقدون

غيرهم من المسلمين لأنهم ينشئون دولاً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى به الإسلام . ثم جاءت فرصتهم عندما أتاحت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على المبادئ الإباضية . وسنرى كيف سار في بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإباضية إلى عبد الله بن إباح التميمي ، وكان ينادى بمذهب الإباضية الذي يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة .

لم يستطع عبد الله بن إباح أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضى في المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو سلمة بن سعيد ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضى فيه ، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر شلف ، وفيما يلى ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها في الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين . الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجوا في أهل البلاد . ومعنى ذلك أنه كان هناك في الجناح الغربى لدولة الإسلام فراغ سياسى يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بنى العباس ، كذلك لم يكن لخلفاء بنى العباس أو ولاتهم سلطان على جبل نفوسة ، وهو منطقة جبلية واسعة جنوبى طرابلس . وكان جبل نفوسة جبلاً واسعاً حصيناً وعراً المسالك كثير الزروع ، تشبثت به جماعات من الخوارج الإباضية ، وقد أشرنا إلى ما كان من صراع بينهم وبين المهالبة أولاً ثم الاغالبية ، وذكرنا كذلك كيف أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافرى تمكن ، في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ، عندما دخلتها قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طرد الصفرية من القيروان وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة .

ولكن الدولة العباسية أرسلت فيما بعد قوة عسكرية ، يقودها محمد بن الأشعث ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية قرب تاورغا قريباً من صرت ،

سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب . ففرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثبتوا عند بلدة حصينة وسط الجبال ، تسمى تاهرت . ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومي يقف عقبة في سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة التي عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها . وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام ، ولكنها كانت في حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعاونتها نظاماً سياسياً مستقلاً عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن ينشئ هناك الإمامة الخارجية الإباضية التي طالما حلم بها ، وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضى في هذه النواحي ، فتكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ، أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشئ دولته على المبادئ الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي كما تقول المراجع . فقد كان أبوه بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس في البصرة ، وهناك أخذ المبادئ الإباضية وانضم إلى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وانتهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الذراع الأيمن لأبى الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به للإباضيين في المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة ، فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وأمنة من أى غزو من هذه النواحي ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أى أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكن أهلها من الاتصال بالإباضية في جبل نفوسة ، والاعتزاز بالقبائل الصحراوية الكثيرة التي كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً ونواحي الصحراء مشتى لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقضى الشتاء في الوديان ، حيث الجو دافئ والأعشاب والمياه متوافرة ، فإذا جاء الصيف صعدت بقطعانها إلى الأعالي هرباً من الحر الشديد ، والتماساً لأراض يكون فيها ماء وعشب . ولم يقتصر الأمر في ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً كانت لها مصايفها ومشايتيها في حدود مجالاتها .

ولكن تاهرت كانت صغيرة وكان عبد الرحمن في حاجة إلى حصن كبير ، فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحاً من الأرض وافر المياه ، وأخذ ينشئ مدينة جديدة هي تاهرت الجديدة ، وبنائها على ضفة نهر غزير المياه ، وحصنها بأسوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وأقام إمامة إباضية ، أى جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادئ الإباضية من الأخوة والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

كان الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل التى دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول الشماخى وهو مؤرخ الإباضية في المغرب : إن الناخبين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهى :

١ - الفضل : ويراد به العدالة ، وهى عند الإباضية جماع صفات الكمال الأخلاقى ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس .

٢ - العلم : إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه ، شرط أساسى من شروط الإمامة عند الإباضية ، ويعرفونه بأنه العلم الذى يوصل إلى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة .

٣ - الوصية : ويراد بها إيصاء الإمام القائم بمن يخلفه ، ولا تكون هذه الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هى توجيه ، وقد قلدوا فى ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضى الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى . وكان عليه أن يستشيرهم فى كل ما أهم الإمامة من الشئون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ - ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية فى فرض سلطانه على الناس ، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لابد أن يتم على أساس الشورى ، أى حرية الرأى والاختيار . فإذا توفى الإمام أو شغل منصبه لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفرأ منهم ، ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحداً منهم إماماً ،

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق ، ولا هى ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق .

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة فى تاريخ المغرب والإسلام ، وهى تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة فى عُمان ، ولكن الأمر هناك لم يَجْرَ على تلك الدقة المذهبية التى جرى عليها عبد الرحمن بن رستم وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار فى الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشئون الدين كما ينبغى أن يكون ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم ، وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها ، فتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية ، فكبرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل جالية حى من أحياء البلد ، فهناك الكوفيون والبصريون والمصريون والقرويون أى القيروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك ، وكلهم كانوا يعيشون فى أمان ويعملون بنشاط فى ظل عبد الرحمن ، الذى كان فى الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره فى الإمامة لم يطل ، إذ توفى بعد ثمانى سنوات من الحكم سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيَّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسى ، ثم انسحب مسعود وبقي عبد الوهاب فتولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقيين ، ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذى رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسى ليرغموه على الانسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمبدئهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة فى ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفى الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أى الانتخاب كان يتطلب نضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،

ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متصلاً ، من أحقاب متطاولة ، في نفوس الناس واتباعه أيسر عليهم .

وكان من الطبيعي أن ينشق فريق على الإمام الجديد ، منكرأ عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أى المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وفرقة تسمى « الوهبية » أى أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدى على الحكم وقعت الحرب ، وانتهت بمقتل قائد النكارية على يد أفلح بن عبد الوهاب ، وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم . ولم ينته أمر النكارية تماماً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة في القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الناصر الإباضى النكارى على خلافة الفاطميين في المغرب .

وسارت الأمور في دولة الإباضية في تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من إباضية جبل نفوسة ، سيراً وسطاً بين الالتزام بمبادئ المذهب والانحراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم . وأصبحت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية ، وطبق إباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقى منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنقاً شديداً ، ولكن جماعتهم في تاهرت وجبل نفوسة استمرت تغالبان المتاعب والازمات دهماً طويلاً ، وانفصلت منهما جماعات إباضية أخرى ، مراكزها في جزيرة جربة وغدامس وواركلا . وفي كل موضع من هذه قامت إمامة إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإباضية إلى يومنا هذا في إقليم الزاب جنوبى الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو أبو اليقظان محمد بن أفلح الذى توفى سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، ولكن الدولة تناقصت قوتها في أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الأعلى للحكم الذى كانت تتصوره ،

وإن كان ينبغي أن نقول : إن حكمهم في إقليم تاهرت ، كان حكماً عادلاً نسبياً وأن أحوال الناس في جماعتهم ، كانت أسعد بكثير من أحوالهم في ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم .

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب ، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك ، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل . وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التي اجتثت كل دول المغرب القائمة في عصرها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م . وكان الذي قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعي ، الذي مر في طريق عودته من سجلماسة بتاهرت ، وخرَّبها وقضى على آخر بني رستم ، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية .

وكان للإباضية دور كبير في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط وبلاد الصحراء ، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن في ظل الأئمة . ولهذا تحولت تاهرت إلى مركز تجاري نشيط خلال القرن الهجري الثالث / التاسع الميلادي ، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهرت وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحة الأغواط في جنوب الجزائر الحالية . ومن ثم يتجه بعضها شرقاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ، ويتجه بعضها الآخر إلى « واركلا » أو « ورجلا » وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى . ومن هذا نفهم كيف تحولت واركلا إلى مركز كبير من مراكز الإباضية ، ومن هناك كانت القوافل تتجه إلى إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة ، وهي واحة كبيرة جنوبى منابع نهر المولوية . وفي واحة تافيلالت التي كانت بداية الطريق التجاري الكبير الذي يعبر الصحراء إلى أفريقية الإدارية قامت جماعة خارجية أخرى . في هذه الواحات - واحات تافيلالت - قامت دولة أو إمارة خارجية صفرية متشددة ، أقامها قبيل من البربر المستعربة وأهل السودان ، يعرفون ببني اليسع بن مدرار . وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صفرية ، أى خوارج متشددين ، إلا أنهم كانوا يتعاملون في حرية مع تجار الإباضيين ، الذين كانوا يفدون عليهم من تاهرت . ومن المعروف أن جماعات التجار متسامحة في موضوع المبادئ

المذهبية لأن الذى يهمهم هى متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إباضية تاهرت وإباضية تافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الخوارج فى الصحراء . ومن هنا فإننا نجد أنه كان للخوارج فى أفريقية الشمالية أثر كبير فى انتشار الإسلام لأن التاجر السودانى ، الذى كان يريد أن يدخل فى معاملات تجارية مع الإباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الخوارج تحولت فى المغرب الإسلامى إلى تحالفات تجار واتفاقات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن جماعات الصوفية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنضمين إلى مذاهب صغيرة قليلة الاتباع ، تتحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه الجماعات أقليات ووحدات اقتصادية مقفلة على أصحابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتمن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق فى المعاملة . ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإباضية ، التى أشرنا إليها ، أنشأت فى الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة ، ومعظمها خارجية إباضية فى الغالب . وفى كل واحة من واحات الصحراء كان الإباضية يقيمون زاوية ، والزوايا كانت مسجداً فى أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتلاقى التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفى صحن الزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو فى نفس الوقت رئيس الجماعة الإباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة ، وفى العادة كانت تنشئ الجماعة زوايا أخرى فى قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التى كان لها أكبر الأثر فى نشر الإسلام فى الصحراء الأفريقية المدارية ، أى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا ، وكذلك فى السودان النيلي فى مناطق كردفان ووادى ثم فى منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التى قامت فيها دول إسلامية أهمها البورنو والكانم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التى قامت بها الجماعات الإباضية ،

التي نشأت أساساً في جبل نفوسة وتاهرت والأغواط وواركلا وسجلماسة ، ثم شملت كل نواحي الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، زال المذهب الإباضي وحلَّتْ محله السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبقى من الإباضية إلا آثار قليلة في نواحي « مصاب » أو « مزاب » في جنوبي الجزائر الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الديني ، وكذلك في واحات واركلا والأغواط ثم في جبل نفوسة ، جنوبي طرابلس الحالية وفي جزيرة جربة في تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .

\*\*\*

## الأدارة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولة الادارة دولة شيعية ، لأن مؤسسيها وأمراءها كانوا من آل البيت . والحقيقة أن الادارة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الادارة أو أتباعهم شيعياً ، فقد كانوا سنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التي شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي . ومن البديهي أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد ، أما الشيعة فهم أنصارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علوية هاشمية ، وهي أول تجربة نجح فيها أهل البيت في إقامة دولة لأنفسهم ، وهي من هذه الناحية تهمنا كتجربة سياسية في سلسلة تجارب الحكم في تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً في تاريخ الإسلام العام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الادارة من الدول الطويلة العمر . فقد قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، ولكنها لم تنته تماماً إلا في أواخر القرن الرابع الهجري ( ١٠١٠ م ) . وقد عمرت فوق القرنين ونصف ، أي ضعف ما عمرته دولتا الأغالبة والرسامين ، وثبتت لمحنة الفاطمية وجيوشها ، وخاضت طوال تاريخها حرب بقاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حيناً وإلى جانبها حيناً آخر ، ولكنها مع ذلك العمر الطويل والحيوية المتجددة ، كانت دائماً من صفات الدول سواء في سعة مملكتها أو قوة أثمتها ، ولكنها كانت من أهمها من الناحية الحضارية ، فقد كان لها في تاريخ المغرب أثر حاسم في صياغة مذهب السنة من ناحية ، وتعريب البلاد من ناحية أخرى . وقد مرت بفترات احتضار طويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قامت دولة الخوارج الإباضية في تاهرت نتيجة للطموح السياسي لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط في إقامة كيان سياسي لها ، فكذلك قامت دولة الادارة على أساسين :

الأول: طموح العلويين إلى إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية .

**والثاني: رغبة قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسى خاص لهم .**

وهذان هما العاملان الرئيسيان في قيام هذه الدولة ، ولكننا في كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغي أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلى للشعب البربرى . وكذلك المتعلقة بطبيعة الأقاليم التى نريد التأريخ لها في المغرب .

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : **إقليم الساحل الشمالى** المعروف تاريخياً بإقليم طنجة ، ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهى ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هى فرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف بإقليم الهبط أو إقليم أزغان . **والمنطقة الثانية** حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسى ، وهو سهل فسيح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادى بورجرج أو أبو الرقراق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى الإسلامى وتلك هى المنطقة الثانية . **والمنطقة الثالثة** هى المنطقة التى تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهري وادى أم الربيع ووادى تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن الجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً فسيحاً يسمى ساحله بريف تامسنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أى الانتى أطلس ، وهنا نجد المجال الذى ستنتفسح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى ، التى أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التى أقامت دولة الموحدين بعد ذلك . ويدخل في هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذى يقع على الساحل بين فرعى جبال الأطلس .

ويحدّ المغرب الأقصى وادى نهر مولوية الذى يصب في البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قليلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط .

وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن هناك ممر

واسع بين الجزء الشمالى من جبال الأطلس وجزئها الجنوبي ، وهذا المر يعرف بممر تازا ، وهو من المواضع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطرين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الأقصى أولاً فى الشمال ، فى منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانه عليها ، ولكن قبائل برغواطة وغمارة ، التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ، ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الإسلام ، عرفت بزندقة برغواطة ، وكانت هذه الأخيرة ومن تبعها ، تهدد كل القبائل المغربية الأخرى ، مما حدا بهذه كلها إلى البحث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينها على تكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطة ومذاهبها ، وتساعد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يؤمن مصالحها ، ويؤمن لها من الوصول إلى الرياسة .

كانت الظروف إذن ممهدة لزعامة سياسية فى شمال المغرب الأقصى ، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولاً ، ثم تمكن لها الأخرى من إنشاء دولة وكيان سياسى ، أى دخول ميدان التاريخ بحسب تعبيرنا اليوم .

هذا الزعيم أرادت المقادير أن يكون إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو أحد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة موضع يسمى باسم « فخ » ، أوقع العباسيون فيه بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على ، كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة ، وكانت المأساة فى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م فى خلافة الهادى العباسى .

وقد فرّ الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد ، وكان من الذين فروا يحيى بن عبد الله الذى هرب إلى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ، ولكن أسعدهم حظاً ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخوه سليمان الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه إدريس كياناً سياسياً فى نواحي تلمسان .

ولا ندرى إن كان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عندما فر إليه ، لكن مولاه راشد الذى فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربرى الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً فى قيام دولة ، ولكنه على أى حال وَجَّه إدريس نحو المغرب ، وقد يكون راشد يعرف اللسان البربرى الذى يتكلم به الناس فى هذه النواحي من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هو أن راشد كان رجلاً ذكياً حسن التصرف بعيد النظر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك .

تقص النصوص علينا حكاية روائية عن هروب راشد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتزئ منها بالقول بأن راشد وإدريس خرجا إلى المغرب فى زى التجار مع القوافل ، فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفى شخصيته . وبعد رحلة سنتين أى خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ، ظهر الاثنان فى طنجة ، وأخذ راشد يدعوا لأمير علوى يحمل راية الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وكانت دعوة راشد لرجل من أهل البيت كافية لتكسب الأنصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً فى طنجة ، وكانت عاصمة المغرب فى ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقى يكمن فى وسط قبائل أوربة ، وكان مركز الجناح الغربى لهذه القبائل فى مدينة وليلي عند قاعدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع فى منتصف المسافة بين فاس ومكناس الحاليتين .

وكانت وليلي مركزاً تجارياً ممتازاً وسوقاً عظيمة للقبائل ، وعرفت فى أيام الرومان باسم Cululis ، وهى من هذه الناحية أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، وأما أوربة فكانت تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادى سبو ، وقد عرفنا هذه القبيلة أيام كسيلة ، ورأينا صراعها مع عقبة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتدخل فى هذه القبائل مجموعة غمارة وهى أيضاً قبائل برنسية تمتد فى حوض سبو وإقليم الهبط ، الذى يسمى لهذا أحياناً هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الأطلسى .

نزل إدريس مدينة وليلي فى ربيع الأول ١٧٢ هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ

يدعو لنفسه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصاراً ، فإن شيوخ أوربة كانوا مستعدين لتأييد زعيم يقودهم في ثورة للخروج من سلطان برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي دولة بنى رستم في تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول ﷺ كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر مأساة « فخ » وما وقع للعلويين فيها من القتل والتشريد ، وهم سلالة النبي الأكرم . لهذا التف الناس حول إدريس في حماس ، وقام إلى جانبه راشد ، يدبر له الأمر ويجمع له القلوب ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة ، وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل الساكنة في هذه النواحي وكانت ناقصة على برغواطة ، وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعاً قبلياً ضخماً مفككاً يحمل عبء برغواطة واستبدادها ، ومع غمارة انضمت إلى إدريس قطع من زاوارة وسدراتة ونفزة ومكناسة .

وبقوات هؤلاء استطاع إدريس أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ، وسار بقواته متنقلاً في هذه النواحي يخضع القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ، ومن طنجة إلى وادى أم الربيع وهى رقعة فسيحة غنية ، ومهد لدولة يحسب لها حساب .

هنا تنبه هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم من الخطر من هذه الدولة ، وكان أكثر ما أخافه أن أميرها علوى من أهل البيت ، ولاهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصة بعد الذى جرى لهم على أيدي الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك مبالغة كبيرة في تصوير مخاوف الرشيد ، ولكن قيام إمارة علوية في أى مكان من بلاد الإسلام ، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون .

وتذهب الحكايات إلى أن الرشيد تدارس أمر إدريس مع جعفر البرمكى ، فتبيننا استحالة إرسال عساكر إلى المغرب ، للقضاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ولم يجد أمامهما إلا الاحتيال في اغتياله بالسّم ، فوقع اختيارهما على رجل جرىء يسمى سليمان بن جرير

ويدعى بالشماخ فحمل السم ومضى إلى المغرب ودخل في خدمة إدريس وكسب ثقته ، ثم تحيل فُدسَّ له السم في هيئة طيب دخل في خيشومه كما تقول القصة الشعبية التي نقلها المؤرخون على أنها تاريخ ، وانتهى إلى دماغه فغشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه ، ثم توفي في ربيع الأول ١٧٥ هـ / يوليو ٧٩١ م . والحكاية لا يمكن قبولها ، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته ، فإن موت الرجال في عنفوان قوتهم يروع النفوس ، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول .

وهنا تبدو لنا مهارة راشد الذى كان المدبر الحقيقى لهذه الدولة ومحور العمل فيها . ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفي ترك إحدى جواريه ، وتسمى « كنزة » حاملاً فاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد « كنزة » ، فإذا ولدت غلاماً كان أميرهم . وتسير القصة فيكون المولود ولدأ ، فيسمونه إدريس على اسم أبيه وبائعوه وهو بعد في المهد ، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ القبائل . وكان عزيزاً عليهم أن يضيع السلطان الذى وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوى . ولهذا انتظروا حتى بلغ الغلام عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م ، واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة .

ثم مات راشد عقب ذلك ، فقيل : إن إبراهيم بن الأغلب تحيل في سمه ، وهكذا بقى الغلام إدريس دون راع حقيقى ، فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى ، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م ، واستمر ولاء القبائل له ، وفى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م — وكانت سن إدريس ١٧ سنة — يختفى أبو خالد من الميدان بتهمة التواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب ، المهم لدينا أن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثانى ، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب ، يفدون على إدريس من القيروان خاصة ، ويدخلون في خدمته . ويتجه نظره إلى الخروج من ليلى ، ربما

لأنه كان يريد التحلل من سلطان قبيلة أوربة ، فدله الناس على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يسمى وادي فاس فأنشأ فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبة وأنشأوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً في عدوة القرويين وشرع في إنشاء مسجد فاس الجامع ، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م ، ودخلت دولة الأدارسة في الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ / ٨١٢ - ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، ثبتت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ونشط لحرب الخوارج في جبال الأطلس . ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين . وفي هذا الدور من تاريخ الأدارسة حمل العبد رجال قبيلتي أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبء الدولة الفاطمية في أول قيامها .

ومات إدريس الثاني في ربيع الأول سنة ٢٠٢ / سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن ثبت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسيه من بنى الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثاني نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كنزة ، بتقسيم الدولة بين أخواته الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيمهم عمالاً أو ممثلين للدولة ، ولكنه أعطاهم نواحي الدولة إقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً في ضعف الدولة وهي بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته ناسياً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن في ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسي العلوي ، الذي كان يتمتع في قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلي :

القاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكتاتهما جنوبي تطوان .  
وكانت تطوان في إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بلاد هواره وتسول وتازا وما بينهما ، بما في ذلك مواطن قبائل  
مكناسة وغيثة .

عبد الله : أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ،  
في أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعراش وبلاد زواغة .

عيسى : مشالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد : مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازان .

حمزة : وليلى وأعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرتة وأقام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاً  
من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلداً أو أكثر وإقليماً تسكنه قبيلة أو قبائل ، وكان له  
الحق في الاستيلاء على معظم المال الذي يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعي أن ينقلب بعض الإخوة عليه ، وأن يتحاربوا فيما بينهم ،  
وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم ، فامتدت  
ولاية عمر حتى بلغت عند موته نصف الدولة الشمالى والغربى كله ، ثم خلفه  
عليها ابنه على بن عمر بن إدريس .

وعندما مات محمد بن إدريس الثانى سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، ترك دولة  
مُفَرَّقة مُقسَّمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه على الأول بن محمد ويسميه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة  
لقب كان يطلق على على بن أبى طالب ومعناه الأسد ، وكان غلاماً فى التاسعة ،  
فحكم تحت وصاية أقاربه ورجال الدولة حتى توفى سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ،  
وعهد بالامر إلى أخيه يحيى الأول بن محمد .

فى عهد يحيى هذا بلغت فاس أوجها أيام الادارسة ، فقامت فيها المنشآت

الكثيرة وامتدت على سفوح الجبال ، وأنشئ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله في ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر . وهي عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه يحيى الثاني وكان شاباً طائشاً غير أهل للحكم ، فثار عليه الناس وطردوه فاختفى ومات في مخبئه ، واختاروا ابن عمه على الثاني ابن عمر بن إدريس الثاني ، الذى كان يحكم جزءاً من الدولة أعطاه إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمنا ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن على الثاني هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني ، الذى صرف وقته في قتال الخوارج الصفرية من ٢٩٢ — ٣١٠ هـ / ٩٠٤ — ٩٢٢ م حتى قتله الربيع بن سليمان فانتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس ، ويقول ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الإدارة سلطاناً وأثبتهم ملكاً ، وفي ذلك مبالغة دون شك .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ — ٩١٨ م وفي إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله المهدي الفاطمي وهدفه إزالة دولة الإدارة ، وانتصر مصالة ، ثم ولّى على المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ البربر وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة ، وجعله عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يقم أميراً على فاس ، وكان من الطبيعي أن يطمع موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الإدارة في دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ — ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الإدارة القائمين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهى الدور الأول من تاريخ الإدارة ، لأن الباقين منهم سيستجمعون أمرهم في قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم جديد من أحفادهم الذين اختلطوا بالبربر اختلاطاً شديداً وأصبحوا من أهل البلاد ، وهو الحسن بن قنون أو جنون أو كنون ومعناه « الجميل » .

وهنا نقف بتاريخ الإدارة ، لأن الدور الثانى من تاريخ الإدارة وهو دور بنى قنون شديد التعقيد ، وهو شديد الصلة بالصراع بين الفاطميين والأمويين الأندلسيين على مصير المغرب الأقصى .

وفى سلسلة التجارب السياسية التى مر بها تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى - وقد ذكرنا أهمها إلى الآن - تعتبر الدولة الإدريسية الخطوة الأولى فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هنا دولة إسلامية ظاهرة العروبة ، فقد كان أمراء الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتاف البربر المستعربين ، وخاصة قبائل أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولوالة ، فكانت الغلبة فى هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تعريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربى .

وقد نجحت الدولة الإدريسية فى القضاء على الجانب الأكبر من انحرافات برغواطة ومن لَفَّ لَفَّها من القبائل ، وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السننى البسيط الواضح .

وكان دليل قيام ذلك المغرب الأقصى العربى المسلم هو قيام مدينة فاس وجامعها العظيم ، وكما كان قيام القيروان هو الخطوة الأولى فى قيام أفريقية الإسلامية ، ف كذلك كان قيام فاس الخطوة الحاسمة فى قيام المغرب الأقصى العربى المسلم . فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية ، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية ، وبدأ يتكون المجتمع العربى المغربى المسلم ، وهذه نتيجة ليست بالهينة ، إذ إنها تعتبر الخطوة الحاسمة فى التغير الكبير الذى جعل المغرب الأقصى بلداً عربية كاملة العروبة والثقافة .